هو العليم

آثار حسن الظنّ بالله والثقة بوعده

شرح دعاء أبي حمزة الثمالي - سنة ١٤٣٥ هـ ق - المحاضرة العاشرة

محاضرة ألقاها الله الحاج السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ قدس الله سره

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين الحمد الله والسلام على سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين واللعنة على أعدائهم أجمعين

«وَأَنَا يَا سَيِّدِي عَائِذٌ بِفَضْلِكَ هَارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ متنجِّزٌ مَا وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْح عَمَّنْ أَحْسَنَ بك ظنَّا»

أنا لاجئ يا مولاي إلى فضلك وإكرامك، وهارب منك إليك، وكلّي أمل ويقين ورجاء في إنجاز ذاك الوعد الذي قطعته من العفو عن زلّات وأخطاء من أحسن الظنّ بك.

ضرورة حسن الظنّ بالله أمام وساوس الشيطان

تقدّم أنّ هذه الفقرات تشير إلى حقيقة واحدة، وتحكى عن قضية واحدة، وإن شاء الله إذا وفقنا في الليالي التالية للاستمرار في البحث حول الفقرات التالية، فسيتضح أنّها كلُّها ترجع إلى مسألة واحدة، وهي حسن الظنَّ بالله؛ فالسالك ومن يسير في الطريق إلى الله لا بدّ أن يكون جادًّا في حسن ظنّه؛ وذلك لأنّ الشيطان يأتي ويوسوس، ويضع في وجه الإنسان الأحداث والمجريات، ويبيّن له ما يوجب اليأس والقنوط ويقول: انظر إلى هؤلاء أتوا إلى الأولياء، ولكن ماذا حلّ جم؟! هؤلاء الذين لازموا العظهاء لسنوات مديدة انظر إليهم؛ فأحدهم صار كذا والآخر صار كذا! وذاك الذي كنّا ننتظر منه بعض الأمور انظر إلى أيّ حال انتهى! وذاك الذي كنا نتوقع منه أموراً أين هو الآن؟! وذاك الذي كان محطّ أنظار الجميع انظر ماذا يقول! فقد رأينا الكثير من هذه التجارب، رأينا ورأينا كثيراً حتى قست جلودنا وشعرنا بعدم جدوى الطريق. وواقعاً كان يحدث مثل ذلك؛ ففي زمان المرحوم العلّامة، بل حتّى في زمان أساتذته كان السلّاك يأتون، وكانوا يأتون بجدّ، ويبقون لسنوات، وكانوا يحصلون على حالات، لا أنّهم كانوا هكذا! نعم، فبعض هؤلاء_والذي لو ذكرت اسمه لعرفه الجميع _ كان يقول له المرحوم العلَّامة: اقرأ هذا الدعاء في الجلسات. وأذكر أنَّه في ليلة من الليالي _ ولا أذكر في أيّة مناسبة _ كان يقرأ المناجاة الخمسة عشر، كان يقرأ والدموع تنهمر على خدّيه، فالدموع لا تأتي من لا شيء! بل لا بدّ أن يكون لها منشأ وانكسار قلب! وأن تكون بسبب الحزن والتوجّه. نعم بعض الممتّلين يعرفون جيداً كيف يؤدّون أدوارهم؛ بحيث يبكون حتى أنهم يبدون في مظهر أشد من صاحب المصاب، وأكثر تأثيراً في المخاطبين والمشاهدين، لكن كان ذاك الشخص يبكى، وأذكر حاله جيداً في تلك الليلة، ثمّ كان بعد قراءته لبعض الفقرات يشرع بترجمتها بنفسه فقد كان من أهل العلم، وأذكر دقيقاً أنّه كان يقول هذه العبارة: إلهي لا تسلب منّا أبداً توفيق الهداية الذي منحتنا

إيّاه، وكان حاله جيداً، لا أنه في ذلك الوقت كان يمثّل، لا بل كان حقاً على هذه الحال وكان يتمتّع بصفاء عجيب!

الحالات التي تعرض للسالك ضيوف لا بدّ من إكرامها

وواقعًا هذا الأمر هو من العجائب !فها هو هذا الإكسير الذي ما إن ينل منه أحد حتّى يتغيّر شكله ولحنه وتصرفه وعلاقاته؟! فهذا أمر عجيب جداً! إنَّ الجلوس مع العظهاء ومراودة الأولياء هو إكسير، وكنّا نشاهد هذا الأمر! لكن ينبغي علينا الاهتهام بضيافة هذا الضيف الذي حلّ في القلب _ كما كان يقول المرحوم العلّامة _ يجب أن يُحتفى بهذا الضيف، ويجب أن يعتنى به؛ فلا يترك ليخرج من مكان آخر، أو أن لا يهتم به الاهتمام اللائق ويجب أن يحتفى بقدوم هذا الحال وهذا التوجه وهذا الربط والارتباط وهذا الاهتهام! فهذه العبارة كانت دائماً تتردّد على لسان المرحوم العلّامة؛ حيث كان يقول: إنّ الحالات التي تعتري السالك هي ضيف يحلّ عليه، ويجب على السالك أن يكرم هذا الضيف.

كيف نكرم ضيوف الحالات؟

١. عدم التصرّف بما يضادّها كاللقاء بأهل السوء

هل تدرون كيف يكرمه؟ بأن لا يتعامل معه بها يضاده! أن لا يفعل ما يوجب خروجه، ولا يشتغل بها يوجب تضعيفه وتوهينه! فهذا هو معنى الضيافة؛ أن يكون دقيقاً ويقظاً وعلى مستوى رفيع من الوعي حتى يقوى ذاك الحال، وإلا فبعمل واحد قد يذهب!

نقل لي أحد الأصدقاء يومًا حادثة عاشها فقال: انتابني في وقت من الأوقات حال، وكان عجيبًا جدًّا. وذلك ببركة كونه آنذاك في قم مشغولاً بتحصيل العلم وكنت أنا أعرفه. يقول: خصوصًا عندما كنت أذهب إلى حرم السيّدة المعصومة كان هذا الحال يقوى عندي؛ بحيث أني كنت أشعر بأنّ جميع ما حولي يترنّم بذكر لا إله إلا الله! هذا بالإضافة إلى مسائل أخرى، وقد استمرّت هذه الحالة معي إلى بضعة أيام، إلى أن كنت عائداً في ليلة من الليالي من الحرم إلى المدرسة _ محلّ إقامته _ وفي الطريق شاهدت رجلًا كان من أصدقاء المرحوم العلّامة

ثمّ انفصل عنه ومشى في طريق آخر، واشتغل بنفسه، شاهدته في الطريق وسلّمت عليه، حيث لم أستطع الفرار منه.. فسلّمت عليه وسألته عن أحواله ومشيت لا أكثر! فذهبت تلك الحالة وانتهت، وعدت كحالتي المعتادة. فبسلام واحد فقط ذهب كلّ شيء! أرأيتم؟! ويقول: ليس فقط ذهبت تلك الحالة، بل حصل لي عكسها؛ فصرت أشعر بالكدورة، واستمرّت هذه الكدورة إلى أسبوع كامل! يقول: إلى أن ذهبت إلى الحرم وأبرزت خطأي وأعلنت توبتي وندامتي فمُنَّ عليّ وقُبلت توبتي وذهبت تلك الحالة!

هذا هو حسن الضيافة! تلك الضيافة التي كان ينبغي أن تكون لم تحصل! فالمسألة دقيقة ولها حساب يا عزيزي! والعلاقات لها تأثيرها، وهذه التعلقات لها تأثيرها، فشئنا أم أبينا هي تترك أثرها علينا! الأشخاص الذين لهم ارتباط مع هؤلاء تبدو علاقتهم تلك من أعينهم، تبدو من شائلهم، مها حاولوا إخفاء ذلك بأن يطأطئوا رؤوسهم وأن يضعوا أيديهم على لحاهم.. فإن أشكالهم تبقى تنادي

بذلك كاللوحة؛ فهناك لوحة تظهر ما أخفاه الوجه! وهناك لوحة وراء إشارات هذه العين، وهناك لوحة تكشف ما أخفته هذه الشمائل! وهذه اللوحة تحكي تلك الخفايا، وشئنا أم أبينا فحقيقة الأمر هي كذلك؛ فهذا العالم عالم قوانين تكوينيّة وعالم تربية، فالغذاء الذي تأكله سوف يشبعك شئت أم أبيت! فمن يكون جائعاً ويأكل سوف يشبع! وهذا ليس بيد الإنسان؛ سواء أكل بشهيّة أم أدخل الطعام غصباً إلى معدته، ففي النهاية سيشعر بالشبع، فهذا الطعام دخل معدته. ومن يكون عطشاناً ويشرب سائلاً سوف يُروى؛ سواء كان هذا السائل سمّاً يمزق أحشاءه، أم كان ماءً، ففي كلتا الحالتين سوف يروى! لكن هذا سمّ وسوف يلاقي نتيجته، وإن كان ماء فهو. فنظام هذا العالم هو نظام تربية. ومن هنا فتوصية المرحوم العلامة وكلامه عن الرفيق بأنّ عليكم أن تكونوا حذرين، لا تصغوا إلى أيِّ كان، ولا تسلَّموا قلوبكم إلى أيِّ إنسان، إنَّها هي لأجل هذا! فهو لم يكن لديه عداء مع أحد يا عزيزي! ولم يرد السوء لأحد، ولم يكن يحصل على شيء أو يخسر شيئاً من

العلاقة بهذا أو بذاك، بل كان مجرّد كلام يوجّهه إليّ ويقول: إن شئت قبلت به، وإلّا فأنت تعلم! هذا هو معنى الضيافة.

عندما يأتي العظاء ويقولون بأنّ هذه الحالات لها حكم الضيف الذي يحلّ في القلب، إنّها هو لأجل هذه المسألة؛ فإنّه لا بدّ أن توفّر للضيف أجواءٌ خاصّة، ويمكنه أن يستمر ضمن ظروف معيّنة، فإن كانت الظروف مناسبة فسوف تستمرّ تلك الحالة وتتبدّل إلى ملكة، وإن لم تكن هذه الظروف مناسبة فسوف تعود وتذهب، وستقول: أنا لا أتّخذ مأوى في المكان أو المنزل غير المناسب لي، ولا أبقى فيه!

٢. عدم إخبارها لمن ليس من أهلها

وهناك توصيات جمّة في هذا المضهار، فقد يقال بأنّ الحال الذي يحصل لك لا ينبغي أن تخبر به أحداً إلّا أهله؛ لهاذا؟ لأنّ الإنسان عندما يخبر به أهله فلن يكون له أثر سيّء، فإنّ هذا الإنسان له قابليّة لإدراك هذا الأمر، وسيتقبّله بقول حسن، وأمّا إن لم يكن من أهله فسوف

يحصل فعل وانفعال في نفس المخاطب، وهذان يحدِثان أثراً في نفس صاحب الحال ويؤدِّيان إلى خسارته، لتأثيره في مثاله وملكوته فيزيله.

فالرؤيا التي يراها لا ينبغي أن يرويها لأحد، الحال الذي يحصل له لا يخبر به أحداً، والمشاهدة والمكاشفة التي تحصل له لا يُعلم بها أحداً؛ سواء كانت مكاشفة علميّة أو مكاشفة صوريّة، كلتاهما ينبغي أن لا يخبر بها أحداً، فإنّ كلاً منهم لا يمكن إدراكه من قبل أيّ إنسان! وليس لأيّ إنسان أن يفهمهما! ولذا قال رسول الله: "لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله أو كفّره"، يعني لو علم أبو ذر ما يدور في قلب سلمان من حقائق، وما هي المسائل التي حصل عليها سلمان، لقتله أو كفّره. ومعنى قتله ليس أن يقوم بقتل سلمان، بل بمعنى أنّ إدراك هذه المعاني يقتل أبا ذرّ نفسه، لأنّه لا يقدر على تحمّلها ولا يمكنه استيعابها، فأحياناً يحصل اختلال للإنسان! بل في أحيان أخرى قد تصل المسألة إلى أمور خطيرة، لا أنّ المسألة بالأمر اليسير. ومعنى "لكفّره" أن يقول عنه: إنه

كافر، وأنه ليس له اعتقاد بشيء، ولا يقبل شيئاً ولا يمكن الاعتقاد بها يقوله.

معنى التنجّز وتجسّده عند بعض أهل المروءة من العوامّ

يقول الإمام هنا: "...متنجِّزٌ مَا وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْح عَمَّنْ أَحْسَنَ بِكَ ظَنَّا"، أنا متنجّز وعلى يقين وثبات، و أنا معتقد بهذا الأمر جازماً... وإنّه لمن العجائب أن يواجه الإنسان أحيانًا بعض الناس من غير أهل العلم ومن العوام، لكنّهم على يقين وثبات بالنسبة إلى ما يعلمون، وهم يقومون بأعمالهم بثبات وجزم. وواقعاً المسؤوليّة مقابل هؤلاء صعبة جداً، فعندما يرجعون إلى الإنسان لا يمكن أن يجيبهم جزافًا بغير تحقيق! لأنهم سيذهبون ويرتّبون أثراً على ما تقوله لهم! أمّا إن كان من الطلّاب أو ذوي العلم فسيجيبك: نتأمّل في ما تقول ونرى ونفكّر فيه وننظر! فهذا ـ الذي هو من الطلّاب ـ لا مشكلة في اختيار ما تقوله له؛ فهو لا يستمع إليك أساساً، ورغم ما تخبره به يذهب ويرى ماذا يقال هنا وهناك...! لكنّ هناك من يأتي إليك ويقبل منك، فليس لك أن تقول لهم شيئاً مخالفاً،

لأنهم يرتبون أثراً عليه! وهنيئاً لهؤلاء، فهم يتقبلون الدين، وذوو ثبات عليه، هنيئاً لهم حقاً، وكم هو جميل أن يكون للإنسان مثل هذه الحالة!

ثبات ويقين المرحوم طيب الحاج رضائي

رحمة الله على المرحوم الحاج طيّب حاج رضائي، وقد ذكره المرحوم العلّامة مراراً، فطيّب هذا كان رجلاً من هؤلاء العوام من أصحاب المروءة والشأن، وكنت حينها طفلًا أبلغ من العمر ما يقارب السبع سنوات حين كنت أسمع باسمه أحياناً، وكان له في أيّام محرّم مجلس خاص ومضافة، وكان لديه موكب عزاء خاصّ به مشهور جدًّا، إذ كان هناك عدة مواكب في الشوارع من جهة شابور ومحطّة القطار وتلك الأماكن، وإحدى تلك المواكب موكب طيّب، وكنت في ذلك الحين أسمع شيئاً من قصصه تتردّد على ألسنة الكبار، إذ كان رجلاً صادقًا وذا موقف ثابت، أقول هذا لِما كان عليه من الصمود واليقين وقد ذكرت لكم قبل ليالٍ قصة ذاك الرجل في أطراف آذربا يجان . . حسناً، رحمة الله عليه، عندما حصلت أحداث الخامس عشر من خرداد (الخامس من حزيران) والثورة التي حصلت في هذا اليوم عام (٤٢ ه. ش، ١٩٦٤ م)، حيث خرج الناس واعتقلتهم الحكومة وقتلت بعضهم، وقد جرت أمور في غاية الغرابة تلك السنة! وكان الحاج رضائي وموكبه من جملة الناس الذين خرجوا في أطراف (سرچمة)، وفي النهاية اعتقل من قبل الحكومة، وحلّ به في السجن كلّ بلاء يمكن أن يتصوّر... كم هي غريبة تلك الأفكار التي تخطر في أذهان البعض...! فقد طلبوا منه كلمة واحدة فقط؛ وهي: اعترف بأنك استلمت مالاً من السيّد الخميني! هنا ينقذ الإنسانَ دينُه وغيرتُه والثبات واليقين والاعتقاد الذي لديه. لم يكن طيّب من مريدي السيّد الخميني، بل كان رجلاً عادياً وكان صاحب موكب عزاء حسينيّ.. وكان له نظائر كثيرة في المدن.. وكان أمثال هؤلاء موضع اعتماد الناس؛ حيث كانوا يأمنونهم على مفاتيح بيوتهم عندما يسافرون، ويعهدون إليهم بنسائهم وأطفالهم، فلم يكن أحد يجرؤ أن ينظر إليهم بعد ذلك! هكذا كان هؤلاء.. وقد لا يكونون من أهل الصلاة والصيام، لكنهم أصحاب مروءة وشهامة وفطرة وإنسانية ووجدان، وهذا هو الأساس والأمر المهمّ؛ فابن ملجم كان يصليّ، ولكن هل كان لديه وجدان؟! أبداً، أين وجدانه؟! هل كان إنساناً؟! أبداً. فتلك الغيرة التي كانت لديهم هي التي كانت تجعل الرجل يوكله بزوجته وأطفاله ويسافر مطمئن البال ويعود...

ورحمة الله على المرحوم العلامة؛ حيث سمعت منه مراراً هذا الكلام: لو لم يكن... _ انتبهوا إلى هذه العبارة واحفظوها ولتكن دائماً في أذهانكم _ لو لم تكن تلك الطبقة من الناس العوام من أصحاب الوجاهة والمروءة والشهامة كأمثال طيب، لما بقي دين لدى الناس! وأمّا الإشارة الموجودة في هذا الكلام فاكتشفوها أنتم بأنفسكم! لو لم يكن هؤلاء لما بقي دين لدى الناس...

لقد قاموا باعتقاله _ إذا خرجت عن الموضوع الذي أود طرحه فنبهوني؛ فإني أردت أن أذكر شيئاً فصرت في شيء آخر وقالوا له: قل: أخذت مالاً من هذا السيد! قال: لا أقول! وعبارته هكذا كانت: أنا لا أفتري على السيد! لم

يكن من أتباع السيّد الخميني ومريديه، لكن قال: لهاذا أفتري عليه؟! فهل يجب أن يكون الإنسان إماماً حتّى لا أفتريَ عليه؟! أمّا إذا كان شخصاً عادياً فيمكنني ذلك وأقول لنفسى: هذا رجل عادي فافتر عليه ولا إشكال، ثمّ بعد ذلك قل: لقد أخطأت؟!! كلّا يا عزيزي! الافتراء أمر عظيم نحاسب عليه، وليس الأمر كما تقول. قال طيّب: هو لم يعطني مالاً، فلن أقول بأنه أعطاني مالاً! فقالوا له: قل هذا الأمر نسلمك المسؤولية الفلانية! فقد رأينا إلى أين وصل البعض، أولئك الذين باعوا آخرتهم بدنياهم؛ أمثال شعبان جعفري وغيره.. فأولئك كانوا في ذاك الطرف من القضية، وطيّب في هذا الطرف! والحال أنهم كانوا يعرفون بعضهم وكانوا في طريق واحد! فقالوا: نعطيك المقام الفلاني! فقال لا.. هذه الأمور كلها امتحان! وهو يحصل لنا جميعاً، لكن بصور مختلفة، وليس من الضروريّ أن يكون الامتحان بهذه الكيفيّة حتماً! بل يحصل بصور مختلفة للإنسان؛ إذ يقف أمام أمرين: أن يقول الحقّ أم لا! يفتري أم لا! يغضّ الطرف أم لا؟! لكنّ الملائكة أعينهم مفتوحة! أعينهم غير مغلقة! وقد ذهبنا ذات مرّة إلى مكان، وفجأة رأينا شيئاً قفز أمامنا وذهب، وإذا به حَجَل ولم نكن قد رأيناه أبداً، وكأنّه وضع رأسه في الثلج ولم يكن بادياً أصلاً! يقال بأنّ الحجل يدسّ رأسه في الثلج، وهو يظنّ أنّ أحداً لا يراه.. كلّا فالملائكة يرون، وأعينهم مفتّحة وهم ينظرون جيداً!

فقال لهم طيّب: لا! فرأوا أنّه لا يمكنهم الوصول إلى نتيجة من خلال الترغيب، فتوسّلوا بعد ذلك بالوعيد والتهديد؛ فقالوا سنؤذيك في زوجتك وأطفالك، وسنعدمك! فقال لهم: افعلوا ما يحلو لكم، فأنا لا يمكنني أن أفتري على السيّد! وبعد ذلك قتلوه واستشهد! يقول المرحوم العلّامة: إنّ طيّبًا في تلك المدّة التي كان فيها في السجن قد طوى مراحل سلوكه إلى نهايتها! هل تعتقدون بأنَّ السلوك هو صلاة الليل فقط وذكر اليونسيَّة؟! مراراً ذكرت بأنّ صلاة الليل وذكر اليونسيّة تمثّل خمسة بالمائة من السلوك أو اثنين بالهائة، وخمسة وتسعون بالهائة أو ثمانية وتسعون بالمائة شيء آخر؛ فعندما يقابل الإنسان

خصمه ويكون صادقاً معه لا يكذب عليه، فهذا هو السلوك، لا أن يأتي ويفتري عليه. وهذا الأمر حصل لجميعنا وسيحصل لنا والآن يحصل! تحدث مثل هذه الأمور، نعم بالنسبة إلى الجميع، فلا تتصوّروا بأنّ الأمر مقتصر على طيّب، وإن كان طيّب تحمّل الكثير، إذ لا يمكنني أن أذكر ما المصاب الذي حلّ به! طبعاً المسائل يمكنني أن أذكر ما المصاب الذي حلّ به! طبعاً المسائل كانت ولا تزال، والزمان هو الذي يتغيّر.

ضرورة الاهتمام ببواطن الناس وعدم مواجهتهم لمجرد فساد ظاهرهم

يقول المرحوم العلامة بأنّ طيبًا قضى في مدّة سجنه كل ما عليه. وكنت شاهداً مراراً على أنّه عندما كان يتشرّف بزيارة الشاه عبد العظيم - وكنّا نذهب سوياً - كان يذهب بعد الزيارة إلى قبر طيّب ويقرأ له الفاتحة، ويقول: سيّد محمّد محسن! أتعلم لهاذا آتي إلى هنا؟ إنّها آتي ليشفع لي هذا الرجل يوم القيامة! إلى أين يصل الإنسان بحيث يحصل على مرتبة الشفاعة يوم القيامة! أرأيتم كيف ينظر الأولياء؟! فهو لا يقول أنا سيّدٌ عالم! وأنا مسؤول مسجد الأولياء؟! فهو لا يقول أنا سيّدٌ عالم! وأنا مسؤول مسجد

القائم، محطّ أنظار الناس من حولي، ولديّ مريدون وتلاميذ... أبداً، يقول: أنا آتي إلى هنا حتّى يأخذ بيدي يوم القيامة، فهو يعلم أيّ قرب له عند الله! إذ هناك الموازين صحيحة دائمًا؛ فلا ينظرون إلى الظاهر، لا ينظرون إلى الثوب والعمامة واللحية واللباس الأبيض والسبحة وخاتم العقيق! بل ينظرون إلى القلب الصافي، وإن كان المظهر غير لائق! وإن كان شعر المرأة بادياً، وإن لم يكن الرجل ملتحيًا؛ فإنَّ الكلام ليس في هذه الأمور، فهناك ينظرون إلى هذا القلب كم هو مستقيم! أمّا هذه الأمور فلهذه الدنيا، فنحن ننظر إلى الظاهر، فكل من يأتينا ويطأطئ رأسه ويقول: أعزّكم الله!! فإنّا نصدّقه، فيا ويلنا لأنَّ اللَّه عالم بباطننا! لكن عندما يحين وقتك أيَّها العزيز الكريم فسوف يُرونك العزة الواقعيّة، سوف يرونك عزّة تجعلك لا تعود تفكر بالعزة أبداً! كنت تظن أنّك عزيز...؟! أمّا ذاك الذي يكون ظاهره هكذا، لا يأتي ويميل برأسه ويقول أعزّك الله! بل يكون صادقًا لا فرق بين ظاهره وباطنه، فهؤلاء لا ينبغي أن يُخرَجوا عمّا هم

عليه! وهؤلاء لا ينبغي أن نشكّك في ثوابتهم، ولا ينبغي مواجهتهم، فالله يعاقب على ذلك! هؤلاء الذين لهم ظاهر غير مناسب، وأولئك اللواتي شعورهن بادية، وأولئك الذين قد يكونون مرمى لطعن البعض هنا وهناك، لكنّ قلوبهم صافية طاهرة، لا فرق عندهم بين الباطن والظاهر؛ بأن يقولوا في الظاهر أعزّك الله، وهم في الباطن كأبي سفيان!

ظاهرش چون بو ذر و سلمان بود *** باطنش همچون ابو سفیان بود

[ظاهره كأبي ذر وسلمان، وباطنه كأبي سفيان]

فمن كان من هؤلاء مهما فعلنا معه فلا إشكال، بل مهما فعلنا معهم فهو قليل. لكنّ أولئك الصادقين لا ينبغي أن يُمسّوا أبداً!

يقول المرحوم العلّامة: أطلب الشفاعة من هؤلاء! طيّب هذا كان لديه ثبات! لديه يقين بالإمام الحسين، لديه يقين بالأئمّة عليهم السلام! هؤلاء كانوا صادقين وذوي موقف.

في الزمان السابق، كنّا ذاهبين ذات مرّة مع المرحوم العلَّامة إلى الحرم، كان ذلك في إحدى ليالي الشتاء! حيث كانت الأرض مغطّاة بالجليد، وكنت خائفاً أن يحصل سوء لا قدر الله! لكنّ العلّامة كان يصرّ على الذهاب إلى الحرم ماشياً، لم يكن يركب السيارة! ومهما كنّا ننصحه، كان يرفض ويقول لا أذهب إلى الحرم إلّا ماشياً. والحاصل أنّني كنت بخدمته، وكان قد وضع وشاحاً على عمامته حتى لا يصيبه البرد، ولكي تبقى رقبته مغطاة. فذهبنا إلى الحرم، وعدنا، وبينها كنّا نمشي في الصحن، إذ أقبل رجل على غير ظاهر المتديّنين، أتى بأدب وقال: هل أنت ابنه؟ قلت له: نعم! من المؤسف أن يكون مثلي ابنًا له! من المخجل أن أكون منتسباً إليه! فقال: من هو؟ فقلت هو واحدٌ من الناس... قال: هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟ وكنا نبعد عن العلّامة بثلاثة أو أربعة أمتار، والرجل يحدّثني بصوت خافت بينها العلّامة يسير أمامنا، ولم يَطُل الكلام معه لأكثر من ثلاث أو أربع دقائق.. قال أريد أن أقول لك شيئاً: لقد شاهدت جميع العلماء _ ولن أوضّح أكثر؛ حيث ذكر مَن وأين ومتى رآهم _ لكن عندما شاهدتُ هذا السيّد رأيت أنّه يختلف عن الآخرين! فها هو سرّه؟ فقلت: حسناً ارجع إلى باطنك ووجدانك وستعرف سرّ ذلك بنفسك! ارجع إلى باطنك. وقد خجل أن يأتي إلى العلّامة؛ لأنّ ظاهره لم يكن كها يجب! فقط قال: سلّم لي عليه وقل له: رجل وجدك بين جميع هؤلاء! ثمّ لم ألتفت إلى ما قال بعد ذلك، ثمّ ودعني وذهب!

انظروا! هذا يقول: لقد ذهبت وشاهدت الجميع، ورأيت أنّ هذا يختلف عن الجميع! في حين أنّ المسألة لو كانت بالعمامة، فالجميع يضع العمامة! ولو كانت باللحية والثوب وما شاكل لما اختلف الأمر. فبأيّ شيء كان يشعر حينها؟ لقد كانت فطرته تقوده نحوه، وبها أنّ فطرته صافية، فهو عندما يرى واقعاً وحقيقة ما ينجذب إليها سريعاً. أرأيتم؟! قد ينظر الإنسان إلى بعضهم أحياناً فينزعج منه؛ لأنّه لا ينسجم معه، فهم الا ينسجمان! خلافًا لها لو نظر إلى من ينسجم معه، وهذا أمر يثير الدهشة! فخصوصيّة المرحوم العلّامة كانت جلية للجميع؛ فقد

كنت معه في جميع المواضع والأماكن التي ذهب إليها، ففي المستشفى كان الناس ينجذبون إليه بشكل تلقائي! وما شاء الله لم يكن مريضًا بمرض أو مرضين! وقد قلت له ذات مرة: سيّدنا! الظاهر أن ملفّكم الطبّي قد اكتمل؛ إذ صار فيه من كل الأمراض: القلب والمعدة وضغط الدم والعين وغيرها... فضحك وقال: لا بل بقيت بعض الأمراض لم أصب بها حتّى الآن!

وفي كلّ مرة كنّا نخرج من المستشفى لنعود إلى المنزل، كنّا نخلّف وراءنا موكب عزاء من قبل الممرّضين؛ نساء ورجالاً، وكانوا يودّعوننا بدموعهم إلى أن نخرج. فهؤلاء يفهمون الواقع وينجذبون إليه، والحال أنّ الكثير كانوا يذهبون إلى نفس المكان، ففي الوقت الذي كان هو في المستشفى كان هناك آخرون يعالجون أيضًا، لكنّهم كانوا عاديين في التفاعل معهم!!

طيّب هذا كان رجلاً ذا ثبات، ذا يقين بالإمام الحسين وذا يقين بالأئمة، كان يحسب لهم حساباً؛ فقد نقل لي رجل وهو بنفسه رأى ما نقله إليّ، رحمة الله عليه قال: كنت

أعرف طيّبًا وكان رجلًا كثير المزاح، وفي يوم من الأيام رأيت منه شيئاً لم أره من أحد سواه؛ فقد كنت في موكبه يوم عاشوراء أيام شبابي ـ والكلام له رحمة الله عليه وهو المرحوم الحاج حسين كبير وكان من أهل الولاء وكان منبرياً معروفاً من سكان قم، فهو الذي نقل لي هذه الحادثة _ قائلًا: كنت شاباً في ذلك الوقت وكنت في موكب طيّب يوم عاشوراء، وجاء الناس وقدّموا لهم الطعام، وكانت القدور كثيرة، وكان لديه موكب كبير جداً، وكان الكثير من الناس يأتون إليه ويأكلون عنده. وبعد الظهر، عند الساعة الثانية بعد الظهر تقريبًا، كان الطعام قد نفد والناس قد ذهبوا، وإذا بخبر يأتيه بأنّ مسيرة عزاء جديدة ستصل، وبدون سابق تنسيق.. إذ كانت المواكب تخبر بعضها بأنهم سيأتون، لكنّ هؤلاء جاؤوا بغير إخبار، ولعلُّهم لم يجدوا مكاناً آخر فجاؤوا إلى طيّب المسكين، وقالوا: ليكن غداؤنا عنده. فقال: ما الخبر؟ فقيل له هناك موكب من مئات الأفراد سيصل إلينا بعد قليل.. ولم يكن قد بقي في القدور شيء، إلا قِدر يحتوي على ما يكفي

لعشرة أشخاص أو خمسة عشر شخصاً، فيه بهذا المقدار من الأرز أو الطبيخ مثلاً، فتحيّرنا ماذا نفعل؟! وإذا به يقوم ويقول: لا تقلقوا أبداً؛ فالموكب للإمام الحسين عليه السلام وهو يعرف ما الذي سيفعله. فقال المرحوم الحاج حسين كبير: رأيت بعيني أنّه ذهب وفتح غطاء القدر، وأخرج طعاماً لهؤلاء الأشخاص الأربعائة وأطعمهم جميعاً. بعد ذلك ذهبت ونظرت في القدر وإذا بالطعام كما كان؛ مقداره يطعم عشرة أو خمسة عشر. فلأيّ شيء يحصل هذا؟ ومن منّا يمكنه أن يفعل ذلك؟ تفضّلوا بسم الله! نحن المدّعون الذين ندّعي بأنّ الجنّة لنا، وأنّ صدر الجنّة لي أنا! ولكن لو وضعت يدي في القدر الذي يحتوي على ما يطعم خمسة عشر رجلاً لتبخّر ولما بقي فيه شيء! تمامًا كما فعل مسيلمة الكذاب الذي قيل له: إنَّ النبيِّ كان يبصق في البئر فيرتفع ماؤه! فقال أنا أبصق فيه فيجفّ!! فالمعجزة معجزة! فهل تستطيعون أن تفعلوا هذا؟! نعم إنّه محقّ! فالمعجزة معجزة في النهاية! فأنا أبصق وأجفّف البئر، ومعجزي هكذا على العكس من تلك، تجفّف

البئر...!! أقوم بالصلاة [صلاة الاستسقاء] فتذهب الغيامة التي فوقنا!

حسناً، كان لدى طيّب يقين، يقين بالإمام الحسين، يقين بالإمام الحسين، يقين بموكب الإمام الحسين. وهذا اليقين هو المهمّ! قصّة أحد العلماء في ترك صلاة الاستسقاء حفظًا لماء وجه التشيّع

وتذكّرت الآن مسألة لا بأس بذكرها، وإن كان الوقت قد شارف على الانتهاء:

كنت أقرأ في كتاب... وهذه المسائل مهمة جدًّا، ومن القواعد الأساسيّة في فتح الطريق أمام الإنسان وتصحيح المسير الاعتقاديّ لديه، فكم نحن بعيدون عن هذه الحقائق! كنت أقرأ في ذلك الكتاب أنّ أحد العلاء وقد مات فعلاً _ أُبعد في زمن الشاه إلى إحدى المناطق في كردستان، وبقي هناك مدّة من الزمن، وكان له نشاط فيها والناس يعرفونه، وكان واضحاً لهم من هو وما هو مقامه؛ حيث كان يعيش بينهم منذ زمن، وكان المطر قد حبس مدّة عن تلك المنطقة، ووقع الناس في حالة من الضيق، مدّة عن تلك المنطقة، ووقع الناس في حالة من الضيق،

وتضرّرت زراعتهم، وحتّى هم تضرروا من ذلك، إلى أن اقترح بعضهم بأنه ينبغي أن نصلي صلاة الاستسقاء، فأتوا إليه وأصرّوا عليه أن يصلي، لكنّه استنكف ورفض الصلاة! وقال: اذهبوا أنتم وصلّوا مع من ترون ـ وكانوا من أهل السنة _ اذهبوا وصلّوا بأنفسكم! وبعد ذلك سأله أحدهم لهاذا لم تصلِّ؟ أليس لدينا صلاة الاستسقاء في الشرع؟! لدينا حتماً في الفقه صلاة الاستسقاء! وقد حصل أن صلّيت صلاة الاستسقاء وأمطرت بسببها، ومن قصصها المعروفة بين الجميع ما جرى في حياة السيّد محمّد تقي الخوانساري والسيّد حجت، حيث انقطع المطر مدّة طويلة عن قم، فذهب السيّد الخوانساري للصلاة في اليوم الأول مع الناس ولم تمطر، وفي اليوم الثاني خرج في جماعة من خاصة أصحابه وصلّوا.. يقال بأنّهم عندما عادوا تلبّدت السهاء بالغيوم، وتزامن ذلك مع وجود الإنكليز؛ حيث ظنُّوا بأنَّ الناس قد خرجوا للثورة عليهم، لذا كانوا في حالة استنفار، وكانوا يسخرون من هذا العمل، ويقولون: أرسلوا إلينا المطر أيضاً والغيوم،

فإذا أمطرت عندكم فأرسلوا إلينا منه أيضاً.. وكانوا يسخرون منهم! يقال بأنّ المطر هطل إلى حدّ أنّ نهر قم امتلأ حتّى كاد يفسد ما حوله وكان ذلك في وسط الصيف. والحاصل أنّ صلاة الاستسقاء هكذا تصنع.

نعم، فقد استنكف هذا العالم عن إقامة صلاة الاستسقاء، وعندما سئل عن ذلك قال: أخاف أن أصلَّى ولا ينزل المطر؛ فيؤدّي ذلك إلى إهانة مذهب التشيّع أمام أهل السنة. انظروا! من هنا نكتشف أنَّ هذا الرجل غير متنجّز ويفتقر إلى اليقين. فما علاقتى أنا وأنت بهذا الأمر؟! قيل لنا: صلُّوا صلاة الاستسقاء؛ فعلينا أن نصلَّى! أفهل أنا وأنت قيمًان على الدين؟! وهل المسؤول عن الدين هو أنا وأنت؟! وهل وكيل الدين هو أنا وأنت؟ إنَّ وليَّ الدين هو واحد وهو غائب، وهو يعلم أنَّ الدين له. ألم ترد صلاة الاستسقاء في الفقه؟ إن كانت لدينا في الفقه فلهاذا تحمل هماً؟ هل تريد أن تحمل هم الدين؟! فالدين له صاحب! فها دخلك أنت! وما دخلي أنا! فإن أراد صاحب الدين أن يذهب ماء وجه هذا الدين فليذهب! نحن لدينا تكليف

طبق الفقه وطبق الشرع الذي بين أيدينا وطبق الأحكام التي كلّفنا بها، فهي تفيد بأنّ هناك تكليفًا خاصًا؛ فصلاة الاستسقاء لها كيفيّة خاصّة، فقد جاء فيها أنّه ينبغي أن يكون الخطيب على هيئة خاصّة، ويلبس ثوبه بنحو معيّن، وأن يكون الرجال في موضع والنساء في آخر، بل حتى الأطفال ينبغي أن يشاركوا فيها... فها دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يصلّي؛ سواء هطل المطر أم لم يهطل، فهذا ليس باختيار الإنسان ولا من تكليفه!

هنا نصل إلى هذه النكتة؛ وهي أنّه حينها نبدو قلقين على الدين، فإنّ قلقنا هذا هو على موقعيتنا في الواقع، لا على الدين، فإن كان على الدين فللدين صاحب؛ فها علاقتي أنا بذلك؟! أصلاً قد يريد الله أن يذهب ماء وجه التشيّع! فليذهب! فها دخلي أنا؟ لكن المهمّ أن ما هي وظيفتي؟ هل أنا متوليّ الدين، أم أني مجرّد مكلّف؟ وظيفتك هي أن تصلي الآن والسلام! ولعلّك لو صلّيت لكان المطر قد هطل! من هنا نعلم بأنّه ليس لدينا يقين بالحقائق! نعم، نقرأ الكتب والروايات ونستنبط، لكن بالحقائق! نعم، نقرأ الكتب والروايات ونستنبط، لكن

ليس لدينا يقين.. أمّا هؤلاء الناس العوام فلديهم يقين! والله سيتعامل معهم على أساس يقينهم هذا!

لذا يقول الإمام السجّاد: أنا على يقين من ذلك الوعد الذي قطعته للذين أحسنوا الظنّ بك بأن تتجاوز عن سيئاتهم، فلست يا ربّ مثل أولئك الذين يقولون: نحن لا نصلي صلاة الاستسقاء كيلا يذهب ماء وجه الدين! لا بل أصلي صلاة الاستسقاء، سواء هطل المطر أم لم يمطل! فأنا أقوم بهذا العمل لأنك أمرتني به، وسواء حصلت النتيجة أم لم تحصل! فالمسؤوليّة ليست بعهدتي، بل بعهدة شخص آخر.

حسناً إن شاء الله، نسأل الله أن ينوّر قلوبنا بنور فهم المباني والشعور بها ببركة هذه الليالي والأيام المباركة، وأن يوفّقنا للعمل بها ذكره هؤلاء العظهاء من صميم قلوبهم وناجوا به ربّم...

اللهم صلُّ على محمّد وآلَ محمّد